هذي هي الاغلال

هل الاغلال في أعناقنا ؟

ثورة جامحة ، تلك التي عصفت من حول كتاب « هذي هي الأغلال » الذي نشره الأستاذ القصيمي ، فاتهم الرجل في دينه واتهم في نواياه واتهم في أخلاقه . جماعات وأفراد ، هبوا جميعاً يقاومون الفكرة التي يبشّر بها ذلك الكتاب القيم ، فكرة أن العقلية الدينية الجامدة هي المصنع الذي تُمَدُّ فيه أصفاد العقل ، وتفتل فيه أغلال النفس . نزع الكتاب نزعة دينية رشيدة ، نزعة المسلمين الذين قال لهم نبيُّهم « وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة » ، لم يقل القوة المادية ولا القوة المعنوية ، ولا عين نوعاً بنفسه من أنواع القوى ، بل ترك معنى القوة يتحيز في فهم كل جيل من أجيال المسلمين بمقتضى الملابسات التي تقوم من حوله . ومؤلف هذا الكتاب رجل حر الرأي واسع الفهم نيّر البصيرة ، إذ قضى بأن القوّة التي يجب أن يعدها المسلمون في هذا الزمن هي « العلم » بالصورة التي فهمها الغرب ، صاحب المدنية السائدة في زماننا هذا . ولا أظنُّ أن مسلماً من المسلمين يجادل في هذا مهما قعدت به الهمة عن تَفَهُّم روح العصر الذي يعيش فيه .

إلى جانب هؤلاء الذين أصابهم جمود العقلية الدينية ، رجال استطاعوا أن يتحرروا مما أصيب به غيرهم من مرض الرُّجعَى إلى أساطير الأوّلين ، ونزعة الخوف من كل ما ألبسه الزمن ثوبا القداسة ، ولقد اطلعنا على كلمة لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن القاياتي أبدى فيها رأيه في كتاب « هذي هي الأغلال » تدمغ بعبارات منها ، باطل أولئك الذين حملوا فؤوس الهدم وراحوا يضربون بها الهواء ظانين أنهم يضربون بها في أصول الحق : قال فضيلته :

« معسكر الاصلاح في الشرق ، طليعته ابن خلدون ، باكورة الاجتماعيين ، وجناحاه « السيد الأفغاني » ، وتلميذاه « محمد عبده » و « السيد الكواكبي » ، أما قلبه فهو

« السيد القصيمي » زوال القاهرة اليوم ، نجدي في جبلته وقبائله ، وصيادته وعقاله ، ذلك هو السيد القصيمي ، إذا اكتحلت به عيناك لأول مرة : قلت : زعيم من زعماء العشائر النجدية ، تخلف عن عشيرته ، ليعيش طليقه ، حتى إذا جئت اليه فأصغيت الى حديثه العذب أصغيت الى عالم كبير يفيض بعلم دقيق واجتماعي .

« تعرّفت الى العالم النجدي القصيمي ، فجلست اليه مرة وسرة ، ثم شهدته كرة ، فناديك منه داعية اصلاح ، أكثر ما يليق به الشرق وأدواؤه ، وجبله ودواؤه .

« لم أقض العجب حين هبدت السيد القصيمي من عربي في شمائله ، ملتف في شملته ، يروعك منه عالم في مدرسته ، كان يعيش شرقيًا بغيرته الشرقية ، وقد بُليت مصريًا . أتحداني هذا السيد لعهد سأتناول بكتابه « في هي الأغلال » ، وأنا ملول مكسال ، فتثلت عليّ الاحاطة به ، تثل الهداية على القلوب ، والجد على القلوب ، ثم عدت فألقيت عليه نظرة جعلتني أمنحه إنباهة الهب المجمل ، على الحبيب المقبل ، فاذا الكتاب منهج اصلاح وخطة إفلاح .

« لقد احتوى كتاب السيد القصيمي برنامجًا لتكوين القومي ، قوامه الانحاء على أكثر من هذا الذي أصفه ، فأعنده من عيوب شائنة للشرق ، هي تلك الشاجية الآتية : فَتْرَةُ الشرق عن العلم ، تنويهه بالجهالة ، الزهد المتصنع ، تكرهه للحياة النبيلة ، صور التوكل المكذوب ، سوء الفهم لأسباب العمل ، الى مشابه لهذه النقائص الشرقيات ، بل المخزيات

« حيّا الله السيد القصيمي ، ما أصدق نظرته الى الحياة ، وأبعد مرماه في الهداية . لقد أذكرني حديثه — وما أكثر ما أذكره — عن فترة الشرق ، بل عن كيده للعلم ، أن إحدى دول الأندلس أو المغرب لعهد قصي ، حظرت تعليم الفلسفة ، وان دولة أخرى هناك حرّمت كتب مالك بن أنس ، رحمه الله .

أما بغداد حاضرة العلم الاسلامي وللمدنية الاسلامية فقد سقيت أرضها الري ، من دم أهل الفقه يقتتلون ، عصبية على العلم ، هذا من شيعة المذهب الفلاني ، وهذا من عدوه !!!

« أجل : لقد أذكرني السيد القصيمي أن مصلح العصر ، مجدد الأزهر ، أستاذنا « محمد عبده » لم يملك إدخال العلوم الاجتماعية الحديثة الى الأزهر ، الاّ عن رشوة نامة من الجوائز

المالية ، دفعها الى أهليه ، فاذا تلك العلوم تدرس فيه وإذا الأزهر يخطر في الحياة العلمية بخطى ضيقة مرة ، فسيحة كرّة ، إلى نهضته المؤودة اليوم بالنجح « وما يوم حليمة بسر »

« بي الآن أن أصل القراء الكرماء بفقرة لتعطفهم من أية ناحية لهذا الكتاب لا أعتمدها ولا أتخيرها بل أفتح الكتاب عنها ، كما يفتح المصحف للتفاؤل ، ليشهد القراء : أي لسان مبين ، وفكر يزين ؟؟؟ ، قال الأستاذ القصيمي :

« شمسان هبطا هذا الكوكب الأرضي الواسع الأرجاء ، فسار شعب تحت ضياء معرفته في قوة لا تكبو ولا تذل ، فاستقل واستقل . . . ، وشعب آخر هبط غريباً في هذا الكوكب ، جاهلاً نواميسه وقوانينه ، فلم يدر كيف يأخذ ولا كيف يدع . . . ، هذان شعبان ، فاذا عسى أن تكون النتيجة لاحتفاظهما ، ليس هناك أدنى ريب في أن الطبة ستكون للعلم والعرفان » .

هذا طراز موجز مما يفيض به الكتاب ، وتلك روح ملائكية السداد والتهدي ، وطراز أعلى من مذاهب العصمة الشعبية والجلال ، بيد أن لي لختين رفيقتين ، إلى بعض ما احتواه الكتاب في روحه العاملة ودعاوته الرائعة ، أولى اللختين : أن الأستاذ القصيمي حين استشهد على بعض قضاياه الاجتماعية ، ذهب ينشد أبياتاً من الشعر مصنوعة ، لشعراء العلماء ، أو العلماء الشعراء ، فيقيمها بيّنات على قضاياه تلك ، وإنما الشعر قضايا خطابية شعرية لقائل فرد ، لا تصف شأناً اجتماعيًّا ، ولا خلقيًّا ، أنشد الكتاب قول الزمخشري ، وهو عالم في تدوين العلم ، وتزين الجهالة ، على مذهب صوفي .

العلم للرحمن جلّ جلاله وسواه في عمراته يتقمم
ما للتراب وللعلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم

وقول ابن أبي الحديد المفسر :

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
فلعى الله الألى زعموا أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا خارجٌ عن طاقة البشر

أجل يا مولاي ، أليس الله تعالى وصف الشاعر « أخلوطة الفكر » ، « خارج عن طاقة البشر » فلا يستكثر من هذا ؟ ؟

على أن هذه المقالة ، وإن بريئاً منها ، مقالات شاعر متخيل ، وقائل متأوّل ، لا تقيم المذاهب الاجتماعية ، ولا تنهض قضيّة

أما ثانية المحتجين ، فتلك هي السيد القصيمي حين عهد تخلف الشرقيين ، بل المسلمين ، عن ركب الحياة ، وموكب البشرية ، تعليله إياس من انتهاضهم الاجتماعي ثانية ، ومن دبيب دم الأحياء في الأعضاء ، وحقّ له ذلك فإن حلية الدهر المهيب ، كحلية الدفين ! ! !

وقعدة الواهن في بيته كرقدة الميت في لحده

لست من رأي الأستاذ في خلو إبراجه من أن تدب الحياة في تجاليد الشرق ، ويعتق من الرّق ، ولا من وجمي الإباء والنباهة ، إلى الآباة ، فان الرّقيّ إذا نشأ ، ثبت ، وإذا قام ، استدام .

إن النهضة الاجتماعية إذا بدت ، سرت ، وإن تمت ، تأصلت . كنهضة الفجر في الليل يبدو خيطه بُدُوّ الشعرة البيضاء في الثّنة السوداء ، حتى إذا استمرّت حيناً ، طغى الصبح ، على الجُنْح ! ! !

محمد الفاياتي

***

وان المقتطف لعلى استعداد ، اتباعاً لما توحي به حرية الرأي ، أن ينشر كل ما يصله من بحوث الأدباء والفقهاء في هذا الكتاب على شرط واحد هو : أن يدور البحث من حول مسائل محددة المبادىء ونظريات علمية او فقهية توجّه فيها المناقشة توجيهاً سديداً ابتغاء الوصول الى الحق . أما الأقوال المائعة والعبارات التي تتناول وجهات غير محددة من البحث كالقول بأن الكتاب مريب أو انه صنيعة للمبشرين او انه دخيلة من دخائل المستعمرين بلا أية بينة من واقع او منطق ، فهذا ولا شك سلاح واهن يزيد الضعفاء ضعفاً ، ويمد عن مخيلة يكرهها العلم وينبذها الدين وتأباها الحرية ويمقتها الخلق السوي الذي هو من خلائق الرجال .